ثانياً : مكانة الكتابة والكاتب (الخطاب) في مصر القديمة

إذا كنا قد أوضحنا فى الفقرات السابقة صورة النظام السياسى فى مصر القديمة وعرفنا إلى أى حد كان وعى الإنسان المصرى قد بلغ حداً بعيداً من الكمال فى إدراك معنى الدولة والنظم السياسية والسلطات السياسية المختلفة ، فإنه من الضرورى بالنسبة لموضوعنا أن نعرف إلى أى حد كان هذا الإنسان المصرى القديم مدركاً لأهمية الكتابة والدور الخطير الذى يلعبه الكاتب فى بلورة الأفكار وصنع الحكمة الخالدة التى تنفع الناس .

لقد كشفت العديد من البرديات القديمة عن المكانة الكبيرة التى كان يتمتع بها الكاتب فى مصر ، ومن هذه البرديات برديه الحكيم "سنب حتب" الذى أوصى ابنه قائلاً : " أعد نفسك لتكون كاتباً وحاملاً قلم المعرفة . . . إنها أشرف مهنة وأجدر وظيفة تليق بك وترفع شأنك وتقربك من الآلهة . . إن ما يخطه قلمك سيعيش أبد الدهر ويكون أكثر خلودا مما ينقشه الآخرون على

الحجر الصلب لأنه سيعيش فى قلوب الناس ورؤوسهم فلا تمتد إليه يد العبث أو التخريب . . تعلم كيف تحرك أصابعك القلم وكيف يحرك عقلك أصابعك فلا يخط قلمك إلا الحكمة والمعرفة وما ينفع الناس . . . اجعل ملف البردى وأدوات الكتابة أصدقاءك ستجد أنهم أوفى الأصدقاء وأخلص الندماء . . . ستزيدك الكتابة بما هو أجمل من ملابس الكتان وعطور اللوتس . إن ما يخطه قلمك هو أعظم ميراث لا تعبث به يد الطامعين وأثمن من إرث أرض فى ناحية الشرق أو مقبرة ناحية الغرب . إن الكتابة مهنة مقدسة تقربك إلى الإله الذى منحك العقل والقلم وتقربك من فرعون والناس وتجعلك حبيباً للجميع . . " (١٢) .

وليس أبلغ من تلك الكلمات السابقة فى تقدير قيمة الكتابة وأغراضها النبيلة فهى وعاء الحكمة وميراث الحكماء والمهنة المقدسة التى تقرب الإنسان من الإله وتجعله محبوباً بين الناس . ولعلنا نتذكر هنا ما قاله أرسطو بعد ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد فى تقدير فضيلة التأمل والحكمة فى الكتاب العاشر من " الأخلاق إلى نيقوماخوس " ، وفى ختام كتاب " النفس " ، إذ لا شك أن ما قاله

أرسطو فى تقدير الحكمة والحكيم وفى قربه من الإله والفعل الإلـــهى كان صدى من أصداء هذه الكلمات المصرية القديمة .

وإذا كان ذلك يعد وصفاً للسعادة والشرف التى يجنيها الكـــاتب من مهنة الكتابة فى نظر الناس والإله والملك ، فإن ما تخلفه الكتابـــة فى نفس الكاتب من سعادة ذاتية لا يقل عن ذلك ؛ ولقـــد قـــال " رع حتب " واصفاً لذة الكتابة : " الكتابة تجعل الكاتب أسعد مـــن امـــرأة وضعت طفلاً فالكتابة كميلاد الطفل الذى يعوض الأم ما تحملته مـــن آلام فى حمله وولادته ، فلا تشعر بأى تعب وهى تقـــوم وترضعـــه وتعطى ثديها لفمه كل يوم . . فرح هو قلب الكاتب الذى يزداد شباباً كل يوم . . فرح وهو يسترد أضعاف ما أعطـــى . . مـــن حبـــهم وتعظيمهم له وتقديسهم لأعماله " (١٣) .

ولقد أدرك المفكر المصرى القديم كما أدرك أرسطو بعد ذلـــك بعدة قرون مدى ما تحققه الكتابة من استقلال وحرية ذاتيـــة للكـــاتب حينما يشعر براحة العقل والسيادة على النفس وعـــدم الحاجـــة إلـــى الآخرين . إن هذا كله عبرت عنه فى الفكر المصرى القديم برديـــة الكاتب " آمون من " حينما قال " : كن كاتباً حتى يريح عقلك إجـــهاد

جسمك . . كن كاتباً لتصبح سيد نفسك ولا تكن تحت إمـــرة أســياد كثيرين . . كن كاتباً فتنعم عليك الآلهة بحاسة جديدة مقدسة تضـــاف إلى نصف حواسك الخمس، حاسة تميزك عن الآخرين فترى مـــا لا يراه الآخرون وتسمع مالا يسمعه الآخرون . . سترى وتسمع بعقلـك وقلبك عالم ما وراء الطبيعة ، ستتمتع بشهوات عقلك فتســعد قلبـك ومن كان قلبه سعيداً أسعد الآخرين (١٤) .

إن هذه البردية كشفت عن مدى السمو الذى تحققـــه الحكمـة للحكيم الكاتب ، فهو الذى يســتطيع وحـده إدراك مـا لا يســتطيع الآخرون إدراكه ، وهو الذى يصل إلى سعادة العقل والقلب معـــاً . وإذا كان ذلك هو ما يشترك فيه أرسطو مع المفكر المصرى القديم ، فإن تميز المفكر المصرى يبدو فى إدراكه أن السعادة الذاتية التـــى يشعر بها الكاتب إنما تمتد ليشعر بها الآخرون معه ، فالكتابة تواصل والخطاب أداة للنفع المتبادل سواء كان مكتوباً أو شفوياً . إنها وعـاء الحكمة الذى تتناقله الأجيال ويتوارثه الأبناء عن الآباء .

والطريف أن كل ما اكتشف من إرث الحكمـــاء المصريين القدامى يتفق فى مضمونه حول هذا الإدراك العميق لمواطن الجمـال

والفضيلة فى التخصص فى التأمل والكتابة ؛ فسبك حتب يقول لمن يخاطبه " ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتابة أكثر من أمك ، ليتنى أستطيع أن أريك جمالها " (١٥) .

وها هو الحكيم آنى يخاطب ابنه قائلاً " فلتكن أمنيتك أن تصبح كاتباً ، فالكتاب أعطى رزق تسعى إليه . . وأعظم هبة يهبها الإله لمن يسعى إليه . الكتاب أعظم قيمة من مسكن الحياة حيث تشرق الشمس وأبقى خلوداً من مقبرة حيث تغرب الشمس . إنه أجمل وأمتع من قصر فى البستان أو لوحة دعاء فى هيكل معبد الآلهة " (١٦) .

إن حياة الكاتب ومهنة الكتابة كانتا تمثلان أملاً وقدوة ينبغى أن تحتذى . وقد حاول كتاب مصر وحكماؤها إقناع ذويهم بذلك قدر الطاقة وبمقدار ما استطاعوا من بلاغة فى الخطاب . ولا شك أن المصريين قد تفاعلوا مع هذه الآراء التى أطلقها الحكماء والكتاب . وقد دلنا على ذلك مدى الاحترام والتقديس الذى ملأ نفوس المصريين سواء كانوا من العامة أو من الخاصة ، سواء كانوا حكاماً أو محكومين تجاه الحكماء وما خلفوه من آثار حكمتهم الخالدة . وها هو الملك الأهناسى المسن يأمر ابنه بفتح ملف البرديات الذى يحتوى

على نصائح الوزير والمفكر المصرى العظيم بتاح حوتب وقد مـــر عليها آنئذ حوالى أربعمائة سنة قائلاً له : " كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون قوى البأس لأن قوة الإنسان هى اللسان ، والكلام أعظم بأساً من كل حرب " (١٧) .

ولا شك أن ذلك الملك المسن كان ممن يؤمنون بـــآراء بتـــاح حوتب الأخلاقية والسياسية ، وخاصة بقوة منطقه فى التدليـــل علـــى أهمية الخطابة والقدرة على الإقناع فى العمل السياسى ، تلك القـــدرة التى قد تتفوق فى تأثيرها على قوة السلاح (١٨) .

إن إدراك قيمة الكتابة وخطاب الحكمة قـــد انتقـــل إذن مـــن مستوى النظر إليها كمهنة شريفة تجلب السعادة لصاحبها وللآخرين ، إلى مستوى النفع السياسى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما كتبه بتاح حوتب فى حوالى ٢٧٠٠ق.م ، حيث كان هو أول مـــن أدرك ذلـــك الربط بين الخطاب المكتوب أو المسموع وبين المهارة السياسية " إذ إن ثروة المرء العظيمة هى عقله " . وإذا كان العقل قد صقل بـــالعلم والمعرفة فلا ينبغى للإنسان أن يتكبر على الآخرين بما يعـــرف أو يعلم، بل عليه أن " يشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكـــن

الوصول إليها ، وليس هناك عالم بلغ فى فنه حد الكمال " ، ولذلك فهو يطالب العالم – الحكيم بأن يحسن الاستماع كما يحسن الكلام ؛ " فالمستمع هو الذى يحبه الإله ، أما الذى لا يستمع فإنه هو الذى يبغضه الإله " (١٩) .

لقد كان بتاح حوتب أول من أدرك أهمية الخطاب بالنسبة للسياسى ؛ فقدرة السياسى المحنك على الخطابة والإقناع ضرورية لينال الحظوة عند الملك ، وليكون قادراً على حل مشاكل الناس وينال الشهرة والسمعة الطيبة بينهم . ولذلك فقد لقن بتاح لابنه قواعد عديدة للخطابة والجدل وعلمه آداب التنافس بين الخطباء (٢٠) .

ومن جانب آخر فقد علمه أن السياسى الناجح إذا ما أراد أن يحقق العدالة على خير وجه فعليه أن يحسن الاستماع إلى خطاب المظلوم حتى يفرغ من شكواه تماماً ففى هذا كمال الفضيلة السياسية فى نظر بتاح حوتب الذى أكد لابنه فى نصائحه إليه : " إذا كنت حاكماً فكن شفيقاً حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسئ إليه قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله . . وأنها لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع مشفقاً " (٢١) .

لقد أدرك المصريون القدامى إذن أهمية الكتـــاب والخطـــاب والفضائل المرتبطة بهما . كما أدركوا الأهمية الشديدة لهما فى عـــالم السياسة ولذلك فقد بدا فكرهم السياسى كله من خلال الخطاب بمستوياته المتعددة ، سواء كان خطاباً صدر من السلطة الملكية أو صـــدر مـــن الشعب حاملاً الشكوى والنبوءة ، وهذا ما سنعرض له فيما يلى .